

## المرأة في الجاهلية والاسلام

إن تاريخ تفوق المرأة العربية ، ينسحب إلى ما قبل الاسلام ، بالرغم من وضعها الحقوقي القاصر ، على مدى الفترة التاريخية ، التي سبقت الدين الحنيف مباشرة . وبعض الحوادث الثابتة باليقين التاريخي ، تصلح الى حد بعيد ، للاستنتاج ، بأن شيئاً عظيماً كان يمتلج في صدر المرأة العربية ، وأن مركزاً مرموقاً كانت تتمتع به . وأقدم الاقوام العربية ، كسبأ وحمير والتدمريين ، أتاحوا للمرأة فيهم مقاماً حسناً ، حتى لقد نبغ منهن كثيرات في السياسة والحرب والأدب .

لقد كانت المرأة تشرف على الحياة العامة ، فتقري الضيفان وتصرف شؤون الرعاة ... وقد تدخل المعركة ، أو تراقبها ، فتلمب صدر الرجل ، وتغريه بالتفوق البطولي ؛ كما أن تدخلها في الحياة الأدبية ، كان يلهم فكره ، ويريده على الخلق الفني . ومهما كان غرض الشاعر العربي في قصيدته فكان لاغنى له عن بضعة أبيات من الشعر يخلد بهن حديث هوى أو موعد غرام ! وبعد فالعربي مزيج من حب وحرب ، وهكذا كانت المرأة

ينبوعاً ثراً في تاريخ العرب لأدب الحب وأدب الحرب . وعن ذلك أيضاً ، أمكن القول بأن عرائس الحب الجاهلي ، كن سبباً قوياً لتتاج في متفوق ، أو لحماسة بطولية منقطعة النظير .

ولا يندفع هذا القول ، بسرد الواقع الحقوقي السيئ الذي كانت عاياه المرأة في الجاهلية ، فالظاهر أن ثمة ضرورة قصوى ، لوجود هذه التناقضات ، بين وضع المرأة الحقوقي ، وبين مركزها الاجتماعي . ذاك أن الجاهلية كانت كما نرى ، في مرحلة انتقال من عصر الامومة الزاهر بالنسبة للمرأة ، إلى عصر الابوة عصر الاستبداد بها ، والتحكم فيها ... ومما يدل على صحة هذا الرأي الذي نذهب إليه ، هذا الصراع العنيف في الواقعات الاجتماعية التي كانت تسود الجاهلية . ولما كنا قد التزمنا في هذه الدراسة ، خطة البحث العلمي ، فاننا لانرى إلى تلك الظواهر الاجتماعية كحوادث شاذة ، أو سخيفة ، وإنما نرى إليها كوقائع ضرورية ناتجة عن اسباب تاريخية تطورية .

حدث ابو الفرج في الاغانى أن النساء أو بعضهن كن يطلقن الرجال في الجاهلية ، وحسبهن في ذلك أن يحولن فناء أخبيتهن دونهم . وحدث ابو هلال أن عمرة بنت ساعد ، ومارية بنت الجعيد العبدية ، وعاتكة بنت مرة السلمية ، وسلمى بنت عمرو بن زيد النجارية ، وهي أم عبد المطلب بن هاشم ، اذا

تزوجت الواحدة منهم ، واصبحت عند زوجها ، كان أمرها أليها  
فاما تحول فناء خباؤها دونه ، وإما تعالج له طاماماً إذا أصبح ! .

كما أن هذا الفخر المدلّ بالخؤولة ، وهذه النسبة الكثيرة  
إلى الأم في قولهم : عمرو بن هند مثلاً ، أو أبناء ماء السماء ،  
وهي ماوية بنت عوف بن جشم ملكة العراق ، وهذه الانكحة  
الشاذة التي عرفها العرب كارهط وهو أن يجتمع أكثر من رجل  
إلى امرأة واحدة ، وكانحدن وهو الزنا بالسر ، وقد نهى عنه  
القرآن الحكيم ، وكائتمة وهي الزواج إلى أجل معلوم . إن كل  
ذلك ليدل دلالة لا جدل فيها ، على أن نظام الأمومة لم يكن قد  
جرر ظلاله نهائياً عن الأقسام العربية الضاربة في بيداء الجاهلية .  
كما أن حكاية الواد ، وهو أن الرجل اذا ولدت له بنت ، حفر  
لها حفرة ودفنها فيها ، وهذا الإلحاح العنيف على حفظ الانساب  
الذي يفتخر به بعض الجاهليين ، وعدم توريث المرأة فيهم ، وتمدد  
الزوجات الذي لم يدركه حصر ، وزواج السبي ، وزواج الاستبضاع  
وهو أن يستولد الرجل امرأته من سيد قرم ، كما أن هذا  
الاستهتار بالمرأة المتمثل في هذه الراوية التي فرغ المؤرخون من  
صحتها : وهي أن الرجل لموت فيقول وليه أنا احق بامرأته ،  
فإن شاء تزوجها أو باعها ؛ إن كل ذلك أيضاً ليدل دلالة صريحة على  
أن نظام الابوة كان قد دخل المجتمع العربي ، منذ فترة وجيزة .  
فالجاهلية اذن كانت تتخبط في فوضى الانتقال . في هذه الفترة

الانتقالية للأقوام العربية ، من نظام الأئومة الى نظام الابوة ،  
ظهر الاسلام السمع ، فلاحظ التناقضات البعيدة ، بين وضع للمرأة  
ممتاز ، وبين وضع آخر لا يوصف ابداً بالامتياز ، فانعكست عليه  
واقعات العصر ، ليتمثلها وينبث عنه التشريع السامي الناظم لكل  
الواقعات الاجتماعية والحقوقية المعروضة في المجتمع العربي آنذاك .  
لقد نالت المرأة العربية أهليتها غير منقوصة ، وصارت صالحة لاكثر  
التصرفات القولية والفعلية . وكادت المساواة تحدث بينها  
وبين الرجل ! .

أما الاسلام ، ثورة العرب الكبرى ، فقد اعطى المرأة من  
الحقوق سواء أكانت أمأ ، أم زوجة أم بنتاً ، مالا يستوعبه السفر  
الضخم ، فضلاً عن الرسالة الموجزة . غير اننا نشير اشارة عابرة  
إلى بعض الحقوق التي منحتها المرأة على يد الدين الحنيف :

لقد حرم الاسلام الواد : « ولا تقتلوا اولادكم ، خشية  
املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيراً » .

وقرر لها شيئاً من التركة : « يوصيكم الله في اولادكم للذكر  
مثل حظ الانثيين ، فان كن نساءً فوق اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك  
وان كانت واحدة فاما النصف » .

وأوصى بمعاشرة المرأة بالمعروف : « وعاشروهن بالمعروف فان  
كرهتموهن ، فمسي أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .  
ومنع عضل الولي : « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتوهن » .

وشرع لها المهر والتفقة ، وسمح لها بالمجارة وممارسة مهنة تدور  
الرزق ، إذا لم يكن لها عائل ، وأقر كفاءتها في القضايا المدنية ،  
فصارت قادرة على التملك والبيع والشراء والهبة والوصية والشهادة  
والإبراء والإيضاء والوكالة . . .

ولم ينسَ العلم بل أقره لها ، وجعله واجباً عليها . وقد تسمو  
تلك الحقوق التي منحها الإسلام المرأة إلى حد حق ممارسة القضاء ،  
وحق الانتخاب ! .

وهكذا انسجم التشريع السمح ، مع الآمال العريضة الجائشة  
في نفس المرأة العربية المتفوقة بالقوة ، فكان لزاماً أن تحدث  
بالفعل ، ولادة المجد والبطولة والحق .

وكانت دفقة نور باهر ، وساد ظلام دامس . وقلك الآمال  
العذاب سرعان ما انقلبت إلى خيبة قاسية ، إذ بين عشية وضحاها  
جردت المرأة من أميز الحقوق التي منحها الإسلام ، وأقصيت عن  
ميدان الحياة العملية لتصبح ملكة متوجة على جدر أربعة تسور  
بضعة أمتار مربعة من الأرض . وتراجعت تلك الحقوق من  
ميدان الحياة العامة ، لتدفن في بطون التواريخ الأدبية وبعض  
الكتب الفقهية ، فتبقى بينة واضحة تنطق بما كان عليه تشريعنا من علم  
وهدى ، وسمو وانطلاق .

ويذهب أكثر الباحثين إلى تعليل ذلك ، بظاهرة التسري.

المتفشية في المجتمع العربي آنذاك . وآراء الفقهاء الجامدين الذين منعوا المرأة من ممارسة حقوقها الممتازة ، وللعادات والاعراف الأَعْجَبِيَّة التي دخلت الدولة العربية بسبب الفتوحات الكثيرة وتمازج الحضارات . ونحن مع احترامنا لآراء الباحثين على ضوء هذه الاعتبارات ، نرى أن ليس فيها كبير غناء :

فآراء الفقهاء لم تكن سوى صدى ، لأفكار العصر . وميل العربي إلى اقتناء الجوارح والمنغنيات والسراي ، لم يكن سبباً لاستبعاد المرأة العربية عن الحياة العامة ، وإنما كان هذا الميل نتيجة لسبب ضخم غفل عنه أكثر الباحثين والمؤرخين ! .

لقد عرفنا من سياق البحث التاريخي ، أن الأقسام كلها تستوي مع بعضها في الخضوع لمبدأ التطور الطبيعي ، وانها كلها قد مرت بنظام الأمومة ، ثم نظام الأبوة ، وأن بعضها الآن قد دخل نظام الأمومة والأبوة ، أو نظام التعاون المشترك بين الجنسين في سبيل خلق الإنسان الكامل . وعرفنا أيضاً أن العرب يوم ظهور الإسلام كانوا في مرحلة انتقال من نظام الأمومة إلى نظام الأبوة . وكانت إرادة الإسلام إلى نقلهم لنظام المساواة أو ما يشبه هذا النظام ! .

بذلك حدث أن الأقسام العربية ، لم تستوف حقها من التطور الطبيعي ، ولم تجر على سنة الأقسام الأخرى باجتياز المراحل

التاريخية التدرجية . وما هي الا فترة وجيزة ، حتى ينطوي صدر  
الاسلام ، لينطلق المجتمع العربي للممارسة حقه كاملاً بنظام  
الابوة الكامل ! .

بذلك يتضح أن ظاهرة التسري ، والتعدد وغيرها لم تكن  
السبب في ابتعاد المرأة عن الحياة العامة ، وانما كانت نتائج صحيحة  
واكيدة لنظام الابوة ذاته . ومن يدرس المجتمعات التاريخية كلها  
يلاحظ هذه الظواهرات في كل مجتمع ساده نظام الأبوة ...

يبد أن هناك سبباً آخر ، قوياً ايضاً ، جعل المرأة العربية  
لاستفيد من كل الحقوق التي منحها الاسلام لها ، نحاول تفسيره  
فيما يلي :

إن الاوضاع النازمة للمجتمعات البشرية ، تنقسم الى زمريتين  
كبيرتين : الاولى ، أوضاع معنوية تتمثل في مجموعة التشرييع  
والقوانين ، والثانية أوضاع مادية تنطوي على وسائل الحياة الانتاجية  
والمواد المنتجة ، والاقتصاد العام .

والظاهر أن الانسجام بينهما ضرورة قصوى في سبيل تحقيق  
النفع الاجتماعي ، فلو فرض وان الانقطاع حدث بين الزمريتين ؛  
كأن تطورت الحياة المادية تطوراً بعيداً صاعداً ، بينما جمدت التشرييع  
على وضعها السابق ، أو كأن خلقت تشارييع سامية في مجتمع ذي

أوضاع. مادية قاصرة ، فان ناقضاً هاماً ، سيؤول حتماً إلى احدى  
نتيجتين :

إما حركة عنيفة تسوق إلى ثورة عارمة ، تهز البناء الاجتماعي  
لتعيد اليه الانسجام الضروري ، للاستقرار والهدوء ، وإما جمود  
موقت تفرضه ظروف خاصة ، فلا ينفع المجتمع بالتالي من نمو  
احدى الزمرتين ، لقصر الزمرة الاخرى عن اللحاق بها .

إن عقل الرجل اليوم قد نما في الشؤون المادية والطبيعية ،  
بسرعة وعمق ، أكثر مما نما فكره في التشريع والقانون ، فنجد  
عن ذلك تقدم في الاقتصاد بعيد ، وقهقري في الاخلاق مريعة .  
فان أكثر الأزمات الهائلة التي تعصف اليوم بالأمم ،  
والآلام القاسية التي يعانيها الافراد ، والمرأة فيهم ، في أنحاء هذه  
الارض من مرض وفقر وجهل واستعباد ، إنما نجمت عن فقدان  
الانسجام بين التطورات المادية الراهنة من جهة ، وبين مجموعة  
التشريعات الحقوقية الممنوحة للأفراد من جهة أخرى . وهكذا  
فأكثر البشر ، في عصرنا الحاضر لا ينتفعون بالتقدم المادي الملحوظ  
في شتى ميادين الاقتصاد العام .

وعكس ذلك تماماً حدث في صدر الاسلام . فمن بين الاسباب  
القوية التي جعلت المرأة العربية ، لم تنتفع بأكثر الحقوق الممنوحة  
لها ، أن النفس الاخلاقية السامية المتمثلة في الرسول العربي ،

لم تكن تنسجم معها ظروف الحياة المادية التي كان يعيشها المجتمع العربي .

وإذن فالانسجام ليس شرطاً من شروط الجمال المحض فحسب ، لكنه إلى ذلك ضرورة قصوى لتحقيق الاستقرار والهدوء في المجتمع السليم .  
وبعد ، فهل تسوق هذه الآراء إلى القول بأن الإسلام كان حركة حيادية بالنسبة للمرأة ، وأنه لم يحقق لها تقدماً ، وأنها لم تفد منه شيئاً ؟ ! .

الحق ان المرأة ، كالأمة العربية ، وكسائر الانسانية مدينة للإسلام بالشيء الكثير ، إذ لولا تعالجه السمحة التي اتصلت بالالتزام الشرعي ، ولولا دعوته الحارة التي اتصلت بالموثود الأخلاقي لكانت ظاهرات عصر الابوة في المجتمع العربي ، هي نفسها لدى كل المجتمعات الاخرى . كدنا نقول بأن الإسلام حادثة فريدة في التاريخ .

لقد كانت المرأة ، عند اليونان ، خلال عصر الابوة ، تعد من متاع البيت ، وكانت عند الرومان تدخل تحت القدرة الابوية لزوجها ، فيتصرف بها تصرفه بالسلع والاشياء .

وإذا ذكرنا أن الرومان واليونان من أرقى الشعوب القديمة ، التي مازال الامم تغترف عن تشاريعها وفلسقاتها ، أمكن لنا بسهولة وبسر . أن نفكر وضع المرأة لدى كل الاقوام الاخرى ! .

لقد كسر الاسلام من حدة عصر الابوة ، فانقذ المرأة من الرق والعبودية ، وحفظ لها كرامتها وصونها ، ورفع عنها خرافة القصر .  
لقد كان لها من الوجهة الحقوقية اكثر مما كانت الثورة الفرنسية لامرأة القرن التاسع عشر ، واكثر مما كانت الثورة السوفياتية لامرأة القرن العشرين ! ...

## المرأة الغربية

### القرون الوسطى :

إذا عرفنا أن القرون الوسطى . التي تمتد من اقراض الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٥ م ، إلى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م هي مرحلة من اشجع مراحل التاريخ البشري ، بما سادها من الظلم والظلام ، والجهل والاستبداد ، أدركنا بيسر حال المرأة في تلك العصور السود :

أما المسيحية ، وإن فرضت طاعة المرأة لزوجها ، فقد كانت بها رفيقة وعليها مشفقة . ولكن رجال الدين المسيحي ، زاهدين أو متزاهدين ، أو بالأصح متأثرين بأفكار عصر الابوة ، دعوا إلى جفوتها والانصراف عنها ، زهداً بالدنيا وميلاً إلى الآخرة ! .  
بيد أن هذا الاتجاه قد حاد عن غايته ، وأنصرف إلى احتقارها والنقمة عليها ، إذ اجتمعوا في « ماكون » عام ٥٨١ وبحثوا في مؤتمر صاحب « هل المرأة نفس ، وهل يجب أن تعتبر من المخلوقات

البشرية ؟ ! . ولا يحسبن أحد أنهم أرادوا إلى تصنيفها مع الملائكة ،  
إذ بأغلبية ضئيلة جداً أقروا لها حق الحياة ! .

أما مجمع قرطاجة فقد كان أوفر تساهلاً ، إذ اكتفى بمنع  
تعليمها ، وتحريم دنوها من الهيكل ! .

واشتدت الحملة على النساء في عصر انتشار الرهبانية ، وافتن  
رجال الاكليروس بصياغة التعابير التي ، إن توفر فيها الخيال  
الشعري ، ينقصها الفكر واللياقة والصدق ، وهي في أي حال ، غزل  
موتور حاقد : فهي باب جهنم ، منظرها شر ، وصوتها كربه ،  
ولسها مخيف ! .

وقال القديس « سيريان » : صفير الضب آنس من غناء النساء !  
والمرأة كالشبكة : قلبها فخ ويداها قيود ! .

ومن تعاليم الكنيسة : ان الغدر صفة التنين ، والمكر صفة الافعى ،  
والمرأة قد جمعت الرذيلتين ! . وكثيراً ما تسأل اغسطينوس : لماذا  
خلق النساء في هذا العالم !

وهكذا انصرفت المرأة إلى أعمال البيت ، تمارس الزهد ،  
وتسبح بحمد ربها وزوجها ، وأسياد زوجها : أصحاب الاقطاعات ،  
ورجال الدين .

ولكن أمراً هاماً حول مجرى هذه الاحداث : لقد بدأت  
حضارة العرب ، تنزوا الغرب بطريق الاندلس . وقد سجل المؤرخ  
« بيبيل » ذلك بقوله : لولا المدينة العربية ، لبقى عصر الاقطاعات

الطويل مجدباً قاحلاً ، وكان عهد الرجعة إلى البربرية ، غير أن  
المدنية الاسلامية الزاهرة ، أصبحت فيه اداة وصل بين مدينة الرومان  
واليونان ، وبين مدينة الغرب التي انبعثت في عهد النهضة . وافادت  
المرأة الغربية ، كثيراً من هذا التحول ؛ يقول لوبون : « فمن العرب ،  
استعار سكان اوروبا ، مع اخلاق الفروسية ، احترام المرأة اللطيف ،  
الذي تعلمه شرايح العرب . . . وبفضلهم ارتفعت المرأة من مقامها  
الوضيع ، إلى مقام اسمى . . . »

والواقع أن المرأة الانداسية ، قد ضربت بسهم وثير في العلم  
والادب والسياسة ، خاصة في زمن الحكم الثاني ، وحسبنا أن نذكر  
كاتبة الحكم ، وولادة بنت المستكفي « سافو قرطبة ! » .

وذكر « أجاييف » المؤرخ الروسي ، أن الاندلسيات كن يحضرن  
الاحتفالات والالعب العسكرية ، والصلاة في المساجد . وأن نفوس  
الشعراء تراح بوجودهن إذ كن كزهر الربيع الزاهر في الرياض الفيحاء ،  
بينما الفرسان يخوضون المعركة بسم الله ، متحمسين بذكر حبيباتهم .  
ويؤيد ذلك قول ابن رشد فيلسوف العرب الاكبر : « وإن المرأة لا تختلف  
عن الرجل ، من حيث الطبيعة ، بل من حيث الدرجة فهن قادرات  
على ممارسة الفلسفة ، وخوض المعركة ، وحكم الجمهورية . . . ألا  
رأيت الى إناث الكلاب كيف تحرس إحداهن القطيع ! » . . .

إن هذه المسكنة الرفيعة التي تبوأها المرأة الانداسية ، لم تكن

مألوفة عند أبناء الغرب ، بيد أن الشهامة والعفة والتضحية ، وغيرها  
من أخلاق الفرسان قد دخلت الغرب غازية عن طريق الأندلس ! .  
وإننا إذ نذكر ذلك ، فلا ننسى فضل الأديرة النسائية في  
هذه القرون المتوسطة ، في رفع شأن المرأة وما أناحت لها من  
تربية وتعليم .

لقد برع بعض النساء في العلم والادب ، وخرج بعضهن في أثر  
الحروب الصليبية ، وتعلمن المداواة وتضميد الجراح . . . كما أن  
جان دارك لا يمكن أن تنسى في تاريخ فرنسا .

لقد نالت المرأة بنتيجة ذلك بعض الحقوق كالارث ، واصبحت  
صالحة لبعض التصرفات المدنية . غير أن هذا لم يكن عاماً بل مقتصرأ  
على الشريقات الأثني شاع يينهن التفسخ ، بينما بقيت نساء الطبقات  
الأخرى يرسفن في أغلال الجهل ، وقيود العبودية .

### عصر النهضة :

النهضة ، إن هي الاثورة الفكر العلمي ، على طريقة الفكر الجامد  
المتملة في السكولاستيك ، الشائمة في القرون الوسطى .

لقد كانت النهضة حركة رائمة ، بعثت الحياة الفتية في الغرب  
الجامد فنشط للعلوم والاداب ، ونهض للتحسس بالجمال والفن .

وقد أثرت في بعث هذه الحركة عوامل داخلية وخارجية .  
فأما الاولى ، فردها احتكار رجال الدين المسيحي للمعارف التي

كانت تكتب باللغة اليونانية واللاتينية اللتين كان يجملهما سواد الشعب في الغرب ، كما أن طريقة السكولاستيك كانت نمد من نمو المعرفة وتطور الفكر العلمي . وقد دعا معظم الباحثين إلى هدم هذه الطريقة ، وانشاء أخرى مستجدة . وأما العوامل الخارجية فتمثل في احتكاك الغرب بالإنديس ، وتأثره بالشرق اثناء الحروب الصليبية ، وهجرة علماء بيزنطة إلى ايطاليا بعد ما فتح الترك القسطنطينية .

ويجثم تحت هذه الاسباب كلها ، المحرك الرئيسي الاول لكل الأحداث التاريخية ، نغني العامل الاقتصادي المتمثل هنا في سيول الذهب التي تدفقت على أوروبا ، بعد اكتشاف العالم الجديد ؛ واختراع الطباعة ، هذه الالة التي سهلت انتشار المعرفة بين جميع طبقات الشعوب الأوروبية .

وقد ينهض ، هنا ، بعض المتطوعين للدفاع عن تناقضات الانظمة القائمة ، ليلفت النظر إلى أن سيول الذهب كانت تندفق على اسبانيا ، وأن الطباعة قد اخترعت في ألمانيا ، بينما يلاحظ أن النهضة شعت في أرجاء ايطاليا . وعندئذ نحيل هؤلاء إلى بعض تواريخ الاقتصاد السياسي لبروا إلى مدى الأزدهار المادي الذي كانت ايطاليا مسرحاً له ، بسبب موقعها التجاري الهام ، بين الشرق ودول أوروبا الغربية .

لقد تميز عصر النهضة بالاقبال الشديد على المسرات والملذات ، وكان رد فعل صحيح للحرية المطلقة التي كانت وفقاً على الطبقات

الارستوقراطية الاقطاعية في القرون الوسطى .

وقامت الكنيسة تدعو بحماس شديد ، لتقييد المرأة ، دفعا  
للفساد وذوداً عن الفضيلة ، وصوناً للاخلاق ! . ولم تقدم أنصاراً من  
الرجال والنساء ، يساعدونها لبث دعوتها وتمكينها من النفوس .  
وجاءت اللوثرية ، التي تأثر صاحبها بتربية قاسية نشأ عليها ،  
تدعو إلى قصر المرأة على الخدمة المنزلية ، وبعض العلوم البسيطة .  
كما أن هذه الحركة البروتستانتية ابطلت الرهبانية ، وألقت معها  
أديرة النساء ، التي كانت تتيح لمن بعض العلوم ، ويسيراً من  
الحرية . وهكذا ، تراجعت المرأة في مطلع حركة الاصلاح الديني . ولكن  
النهضة تيار جارف ، لا تلويه عن عزمه دعوة ، ولا ترده مناهضة ،  
فشاركت المرأة في الحركة الأدبية والفنية ، وانشأت مجالس للشعر  
والعلم ، يفشاها الفنانون والعلماء يتناقشون ويتناشدون .

### القرن السابع عشر :

وكان القرن السابع عشر ، والكنيسة لم تراجع عن دعوتها ،  
بورجال الاصلاح يعنون في فسادهم ، ويدعون الى خنق الحرية  
وتقييد المرأة ؛ ويدلون في ويتذبرغ بخمسين برهاناً على ان المرأة  
ليست انساناً ! . بيد ان هذه الضجة المصطنعة ، كان لها رد فعل  
عنيف ، فنهضت المرأة تدافع عن حقوقها السلبية ، وحريتها المخلوقة ،  
تذكر مثلاً ، مدام دي مونتينيون في فرنسا ، وماري استبل في  
انكلترا . كما أن الصالونات النسائية بدأت تحتل في هذا القرن مركز  
الاديرة الرهبانية ! . واشتهرت المركيزة دي رامبويه بافتتاح منتدى

أدبي في دارها ، يؤمه كبار الادباء والشعراء بسمرون ، وينشدون ،  
ويبحثون في جمال اللفظ وجمال المعنى .

### القرن الثامن عشر :

لقد بدأت تظهر في هذا القرن ، والقرن الذي مضى ،  
تناقضات النظام الاقطاعي ، وبدأ التمهيد لظهور النظام البورجوازي  
الفاشي ، على انقاض النظام الشائخ . إن هذا النظام الاقطاعي المتفسخ  
كان ما يزال يلح على جعل المرأة منزوية في دارها ، وكانت الآراء  
على ترك المرأة بعيدة عن التعلم والحياة العامة . وآراء المفكرين  
والكتاب في مشكلة المرأة ، تؤلف جزءاً من آرائهم في الكون  
والمجتمع والسياسة . فيرى غوته : « حسب الزوج أن تكون  
امراته جميلة الجسم والروح ، وتحسن ادارة المنزل ،

وغريب غاية القرابة ، أن يُحاول عام ١٧٦٦ أن يبرهن على  
أن المرأة ليست من المخلوقات البشرية ، في أحد المؤلفات ! .  
أما فيليون فكان يرى أن واجب المرأة يتلخص بالمحافظة على  
راحة الاسرة ، وتربية الاولاد ، تحت ارشاد الزوج ! . لاشك  
أنه حل ارسطقراطي يمثل نظام الاقطاعية المندهرة . أما روسو  
المبشر بمحاسن الحياة الفطرية ، فقد بدأ متناقصاً مع نفسه في  
بعض مؤلفاته ، بيد أن رأيه العام في المرأة ، هو أن تحسن الحب  
والامومة . أما كوندورسه ، الذي ساعدت فلسفته المادية الجريئة  
على هدم النظام الاقطاعي ، وبناء النظام البورجوازي ، فكان

يرى أن ذكاء المرأة يكافئ ذكاء الرجل ، وأنه ينبغي أن تتعلم  
المرأة العلوم التي يتعلمها الرجل ، كما أنه طلب في الثورة الفرنسية  
عام ١٧٩٢ اقرار حكم التطعيم المجاني الاجباري لسكافة أبناء وبنات  
فرنسا على قدم المساواة .

ونشطت الحركة النسائية ، على الرغم من كل دعوة مضادة  
فدخلت المرأة الجامعة وأظهرت ضروباً من القدر والكفاءات في  
ميادين الآداب والعلوم والطب والرياضيات والفلك . كما أن  
المتنديات التي افتتحها النساء في هذا القرن ، ساعدت على نمو الفكر الثوري  
الذي تغلغل بين كل الطبقات الواعية في فرنسا ، والذي ساعد على  
انقلاب ١٧٨٩ . وبعد ان كانت صالونات النساء في القرن الماضي  
تبحث في جمال لفظة ، أو جمال تعبير ، أصبحت صالونات القرن  
الثامن عشر تبحث : لماذا يجب ان يكون الانسان حراً . ومن  
الذي جعل الفروق خالدة بين الناس ! .

وهكذا نرى ان المرأة رغم الدعوات والتبشيرات الرجعية ،  
كانت تتقدم بخطى وثيدة نحو الحياة العملية والفكرية ، ذلك ان  
الاقطاعية ، النظام الاقتصادي والاجتماعي ، الذي كان له ما يبرره  
في القرون الوسطى ، بدأت تتزعزع أركانه امام البورجوازية  
المتفتحة ، حتى لفظ انفاسه الاخيرة على قرعة جدران الباستيل المتداعي !

## القرن التاسع عشر !

إذا كانت ثورة ١٧٨٩ ، نقطة تحول في تاريخ البشرية ، كما شاء أن ينعها « غوته » ، في صبيحة انتصار معركة فالسي ، فما اجدرها أن تكون نقطة تحول في تاريخ المرأة ، هذه التي تعدل نصف البشرية . لقد كانت الثورة ، ضربة قاسية على الرجعية والاقطاعية ، والتحكم والاستبداد ، وقد أعطت حقوق الانسان والمواطن ، وسوت بين جميع الناس أمام القانون ، وكان في احداثها ظروف « لائمه » لتظهر خلالها كفاءة المرأة ومواهبها . ومن يرى إلى تلك الواقعات الضخمة التي رافقت الثورة يرى كيف خاضت المرأة المعركة ، لتساهم في ظفر الجمهورية واندحار الحكم الملكي المطلق ! .

غير أن الاسرة كانت ، في نظر « ابن الثورة العاق » ، نابليون ، معسكراً ، السيادة فيه للرجل ، والخضوع نصيب المرأة المكافئة بانتاج رجال للحرب ! .

لقد سأله مدام دي ستال ، عن افضل امرأة بنظره ، فأجاب : « هي الاولاد من غيرها ! » ثم مالبث أن نفى هذه السائلة المزعجة ذات الصوت المرتفع ! .

وقد دس نابليون في القانون المدني الفرنسي ، الذي أثر في أكثر القوانين المدنية الحديثة ، في الشرق والغرب ، الفصل / ١٢٣ / الذي يقضي على المرأة بطاعة زوجها ، وعدم تمكنها من التصرف بأموالها ، والتعاقد الا برضا هذا الزوج ، وليس لها الحق بالوصاية

على يتيم إلا إذا كان ابنها أو حفيدها . هذا كما انه حرم على البنات  
التربية القومية ، وحظر عليهن العلم العملي .

وقد أثرت آراء نابليون في كثير من الأدباء والمفكرين ،  
فانكر ديمتر ، على المرأة كل كفاءة ، ونعتها بريدون بالعم الفكري ،  
وزعم شوبنهاور حكيم الرحمة : بانها طويلة الشعر ، قصيرة العقل ؛  
وذهب فيلسوف القوة فينشه ، الى ان الرجال الذين يطالبون بانصاف  
المرأة ، هم ذكور ضعاف العقول ! . لقد أصر نابليون قضية المرأة  
كما أصر قضية الحرية . بيد أنه ماأخذ نجمه بالأفول ، حتى قام  
انصارها يدافعون عنها بحزم وجرأة ، كما هبت هي ايضاً للدفاع  
عن حقها في الحياة والحرية . وعام ١٨٦٨ فتحت جامعة باريس  
ابوابها للطالبات ، وانتشر التعليم الابتدائي للاناث في المدن والقرى  
وازدهرت الأندية النسائية التي شعت عنها الحركة الإبداعية  
في الأدب الفرنسي : كنادي مدام نوديه الذي كان يتردد إليه  
شاعر الرومانسية الفرد دي موسيه

ان انتشار المعرفة خلال القرن التاسع عشر ، ونبوغ المرأة  
فيها ، جعلها تطمح الى مساواة الرجل ، ولكن عائقاً هاماً كان  
يحول بينها وبين هذه الامنية : إنه العائق الاقتصادي .

وكانت ثورة الآلة وانقلاب الحياة الاقتصادية ، فنزلت المرأة إلى  
ميدان العمل ، بدافع الضرورة المادية ، وزاحت الرجل في

الزراعة والصناعة والتجارة، وبلغ عدد العاملات الفرنسيات عام ١٨٩٦ ، ستة ملايين ونصف مقابل اثني عشر مليوناً من الرجال . ولكن جماعة من علماء الاقتصاد ، حاولوا الوقوف في وجه هذه الظاهرة الفذة ، جاهلين أو متجاهلين مبادئ التطور العامة ، فكان نصيبهم الخذلان والفشل . ووضعت فرنسا عام ١٨٤١ شرعة لحماية العمال من الجنسين ، وقد عدت هذه الشرعة عام ١٨٧٤ ، وفي عام ١٨٩٢ وضعت نظاماً آخر أكثر دقة وإحكاماً وشمولاً .

وحدت معظم الدول الأخرى حذو فرنسا ، لتشابه الظروف الاقتصادية في هذه البلدان الأوروبية والأميركية ، فشهد القرن التاسع عشر إلى جانب ثورة الآلة ، ثورة اجتماعية غيرت من حياة المرأة ، وبدأت من حقوقها وواجباتها .

### القرن العشرون :

يقول أحد المؤرخين ، في معرض حديثه عن تقدم الحضارة خلال القرن الماضي : « لو تيسر لأحد أبناء النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يعود إلى ما قبل ثلاثة آلاف عام ، لما أنكر كثيراً من حال ذلك العصر ؛ بينما لو تيسر لهذا الرجل أن يعيش حتى نهاية القرن التاسع عشر لما صدق ما يرى . . . » .

إن هذه الفكرة ترد كلها ، في مجال بحثنا عن تطور للقضية النسوية في القرن العشرين . فقد شهد النصف الأول لهذا القرن الذي لا يزال نعيش في غمراته ، قفزة نسائية رائعة تفوق

بقوتها وتصاعدها ، مجموعة الخطوات البطيئة ، التي حققتها هذه الحركة على مدى نظام الإبوة كله . وقد تراجعت في هذا القرن كل الأفكار الضالة المضلة التي كانت تبرز لدى كل دعوة للمساواة بين الجنسين . لتزوي في اطواء الكتب الأدبية أو الفلسفية ، وتحل مكانها أفكار المساواة والحرية . وقد فرضت أحداث هذا القرن على المرأة ، ان تنزل إلى الحياة العامة ، فظهرت كفاءات كانت خبيثة ، وقدرات كانت متجمدة عن العمل الثمر المبدع ، لاعتبارات مشبوهة لاتقف على قدميها أمام وقائع الحياة ! .

ولسنا الآن في مجال التبسط يبحث التطورات المستمرة الصاعدة . للحركة النسوية في كل بلد من بلدان الغرب ، وإنما نرى بلوحة خاطفة إلى أبرز حوادث هذا القرن .

إن مراحل هذه النهضة الشاملة تتمثل بالتعليم أولاً ثم العمل ثانياً ، ثم المساواة السياسية المطلقة ثالثاً . لقد أقيمت المرأة الفرنسية على مختلف المهن والصناعات والوظائف تثبت كفاءتها وتؤيد حقها ، ولذلك فقد تدخلت الحكومة خيفة من الاضرار الاجتماعية ، وحددت العمل الليلي ، والراحة الاسبوعية ، والصحة في العمل ، مما هو وارد في تشريع العمل . وكذا كان الحال تقريباً في بلاد الانكليز . أما اميركا فهي أيضاً شهدت انقلاباً في حال المرأة ، لما أطل عام ١٩٠٥ حتى كانت تؤلف ثلث طلاب الجامعات أو أكثر ! . وانحازت الاميركية إلى العلوم العملية ، فاشتهر منهن نساء أعمال ، وتطلع علينا بذلك نتيجة هامة ، وهي فقدان

التخصص الطبيعي ، الذي يلح كثير من كتاب الشرق ، على جملة حقيقة خالدة ! .

وحدثت الحرب الكونية الاولى ، فشد الرجال إلى القتال ووجدت المرأة نفسها أمام تبعات جسام ، وكانت تجربة ممتازة ، فرضتها ظروف الحياة لتكون الحكم الفصل بين أعداء المرأة وانصارها . فعملت المرأة في الزراعة والصناعة ، وفي جميع مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ودخلت الجيش ممرضة فأظهرت كفاءة وحماسة ، وانخرطت في ادارات الجيوش المحاربة ، واشتركت أيضاً في أعمال الطيران ! .

ووضعت الحرب أوزارها وعادت المرأة إلى النضال من جديد ، ولكنه كان في هذه المرة أقل جهداً ، إذ أقرت لها المجالس التشريعية في البلدان الديمقراطية حقوقها المدنية والسياسية ، ودخل النساء إلى المجالس البلدية ، والندوات النيابية . وهكذا فالمرأة في بلدان الغرب تكاد تساوي الرجل في علمه وعمله . وكل يوم يمر تمرز فيه انتصاراً جديداً وتنتزع من « السيد المطاع » حقاً سلبياً . غير أننا لاننسى ان نسجل بأن العالم الرأسمالي يتأكد في إعطاء النساء كافة حقوقهن ، ذلك لانه يخشى فرط الانتاج ، إن اقبلت المرأة كالرجل على الصناعة . أما المنطق السليم ! فيعضي بتنظيم التوزيع لرفع ذاك المحذور ، لاي فرض الانزواء على المرأة التي اصبحت بحاجة ماسة إلى عمل يقيها مذلة السؤال وعار النفقة ! . وحكاية اغراق

والبن وحرق ، القمح والقطن ، ليست مجبولة لدى الناس ، ولا نظن  
أن المرأة يد فيها ! . .

وبينا بقيت المرأة الغربية تناضل بعناد لاستكمال حقوقها ، وتوطيد  
حريتها ، قفزت المرأة الروسية ، التي كانت في عهد القيصرية جاهلة  
فقيرة ، مستعبدة ، إلى مستوى يحسدها عليه الغربيات ، العريقات  
في الحضارة ، المتمرسات في النضال التحرري . لقد رفعتها ثورة  
« اكتوبر » ، إلى مرتبة الرجل وسوت بينهما في الحقوق والواجبات  
ولذا نرى لزماً أن نبحث ببعض الاسباب قضية المرأة في الاتحاد  
السوفيياتي ، لأنها الصفحة الاخيرة التي انطوى معها نظام الابوة ،  
ليظهر نظام المساواة الكاملة .

### المرأة في العالم الاشتراكي :

إن ثورة ١٩١٧ في بلدان الاتحاد السوفيياتي ، نقطة تحول عظيم  
في حياة الانسانية جماء . ان جدار الرجعية والجمود الذي كان يحميه القيصر  
واعوانه رجال الاقطاع ، وتذود عنه المشانق والسجون والمنافي ،  
قد جرفه تيار الثورة الطامي ، فانهار على رؤوس حماته دفعة واحدة ،  
ليفصح مجالاً لنظم وتنظيمات ، وليدة الحاجة الى الحياة الكريمة الحرة ، نقلت  
سدس العالم إلى مرحلة الاشتراكية الكاملة ، مرحلة الانسانية المتفوقة . . .

لقد زالت . بزوال القيصرية ، جميع ضروب التحكم والاستبداد :  
تحكم القيصر بشعبه ، واستبداد الروس بالاقوام التابعة لموسكو .  
وانقضت سلطة رجال الاقطاع على الفلاحين ، عبيد الأرض . والمحسرت

مظالم ارباب العمل ، عن عمالهم ومستخدميه . وكذلك تقلصت سيطرة الرجل على المرأة التي اصبحت مواطناً ، له جميع الحقوق وعليه جميع الموجبات ! . لقد أفسح رجال الثورة وقادتها الذين قاموا بتنظيم الاتحاد السوفياتي ، للمرأة مجال الدخول الى جميع ميادين الحياة ، وحطمو الحاجز بينها وبين العلم والعمل ، فزالت الفروق الجنسية التي كانت توصف بالخلود والاطلاق ، كما حذفت الفروق الحقوقية بين الاقاليم والمناصر والأديان ، بمد أن كانت توصف هي أيضاً بالخلود والاطلاق ! .

لقد وقمت المرأة السوفياتية معاهدة برست ليتوفسك مع من وقمها ، واشتركت في الوفود السياسية ، ودخلت الجندية ، وهكذا تحققت بعض نبوءة المفكر العربي ابن رشد : فهن قادرات على ممارسة الفلسفة ، وخوض المعركة ، وحكم الجمهورية ! . صدق الفكر العربي . لقد نصت المادة / ١٢٢ / من دستور الجمهوريات المتحدة السوفياتية : « للمرأة في الاتحاد السوفياتي حقوق متساوية مع الرجل في ميادين الحياة الاقتصادية والعامة والثقافية والاجتماعية والسياسية ، ويكفل للنساء إمكان ممارسة هذه الحقوق ، إعطاءهن حقوقاً متساوية مع الرجل في العلم ، والاستراحة ، والضمان الاجتماعي ، والتعلم ، وحماية الدولة لمصلحة الام والطفل ومنح المرأة إجازة قبل الولادة وبعدها بأجر كامل ، ووجود شبكة واسعة من بيوت الولادة ،

ودور الحضانة ورياض الاطفال .

ونصت المادة / ١٣٧ / على الحقوق السياسية : « للنساء الحق

في أن يُنتخبن و يُنتخبن على قدم المساواة مع الرجال . »

وعندما شن النازي هجومه الصاعق المحموم على وطن الاشتراكية ، عملت السوفياتية ، من أية قومية كانت ، في المنجم والمعمل والمحقل وظهرت منتجة بارعة . كما انها تفوقت في العلوم القائمة على المشاهدة والتجربة كالطب والهندسة والكيمياء . وساهمت في عراق البر والبحر والجو في قتال عنيد ضد أضخم آلة للفتح والسيطرة ، ظهرت خلال التاريخ .

ولا عجب إذا قدرت الاشتراكية أن تمحو فروق « الكيف » ، المزعومة بين الرجل والمرأة . فالسوفياتية نالت حقوقها كاملة غير منقوصة ، وتيسر لها ما تيسر للرجل من علم ورياضة وتدريب : لقد شمرت بكرامة المواطن فعمرت كيف تتحمل مسؤولية المواطن ايضاً . وإن هذه النتيجة لمنسجمة كل الانسجام مع نظام يعاقب على استغلال الانسان للانسان ، ويسوي بين الناس جميعهم على اختلاف عناصرهم ومعتقداتهم والوانهم ، في الحقوق والواجبات ، ويجعل للانسان وحده القيمة المطلقة .

المرأة في الوقت الحاضر :

إذا كانت الحرب العالمية الاولى ، قد ساعدت على تحرر المرأة وتقدمها

فالحرب العالمية الثانية كانت أقوى أثراً وأبعد مدى في هذا المضمار .  
لقد ساهمت المرأة في الحرب بنصيب وافر ، في الجيش والطيران  
والتدريب والمداواة وإدارات الجيوش ، وأخذت محل الرجل في  
المعمل والمتجر والمدرسية ، بعد أن حشدت ملايين الرجال للاعمال  
العسكرية . ولما كانت قد اثبتت كفاءتها في كل ميدان ، فقد  
نالت من الظفر ما يتناسب والجهود التي بذلتها ، في الانتصار على البربرية  
الحديثة ، عبادة الدم والسيطرة ، على النازية الفاشية .

وقد ساعد المرأة على نيل حقوقها المدنية والسياسية بعد هذه  
الحرب الضروس ، عدى عن مشاركتها في الحرب ، ونبوغها في كل  
علم وفن ، انتصار الاتحاد السوفياتي ، ودخوله المسرح الدولي ، ونجاح  
الاحزاب الاشتراكية والشيوعية في مختلف الاقطار الغربية ، هذه  
الاحزاب التي تهدف في مبادئها إقامة المساواة بين الجنسين ، دون  
خوف من فرط الانتاج ، أو كساد المصنوعات ، أو أزمات البطالة ،  
لأن لهذه حلولاً تختلف عن الحلول التي أجهد فكره فيها الراهب  
الروتستاتي : مالتوس ! .

لقد أصبحت المساواة بين الجنسين ، في الحقوق والواجبات  
على مختلف أنواعها ميزة تطبع العصر الحديث في البلدان المتقدمة .  
وجاءت شرعة الامم المتحدة تؤيد وتثبت هذه المساواة  
فقد نصت المادة الأولى من مبادئ وأهداف هيئة  
الامم المتحدة في سان فرانسيسكو في فقرتها التالية مايلي :

... وتحقيق التعاون الدولي ، على حل المشاكل الدوائية ، ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية ، وعلى اشاعة وتشجيع احترام الحقوق البشرية والحريات الاساسية لكافة الناس ، دونما تمييز بين الاجناس واللغات والاديان ، او تفريق بين الرجال والنساء .

والمادة الثامنة منها على ما يلي : « لاتفرض المنظمة أي قيد يحد من دخول النساء والرجال ، ضمن شروط متساوية ، في جميع الوظائف ، سواء أكان ذلك في الفروع الرئيسية ، أم في الفروع الثانوية » .

وقليل من الملاحظة ، يرينا أن تلك التطورات الهائلة من مؤتمر ماكون الى مؤتمر سان فرانسيسكو ، ليست عبثاً ، وإنما تخبئنا أن نظام المساواة سيصل إلى غايته في مدة وجيزة ، إذا لم يكن قد وصل إلى هذه الغاية فعلاً . اللهم إلا إذا اعتبرنا أن التاريخ عبارة عن ركام من الأحداث ، واعتقدنا أنه من الممكن مثلاً ، أن يذبح نظام الرقي والاقطاع من جديد ! .



# التعليق العلمي

## لوضع المرأة في التاريخ

يلوح لبعض الباحثين في علم الاجتماع ، أن نعمة فروقا خالدة بين الرجل والمرأة ، وأن صفات ومميزات تطبع كلا منهما بطابع خاص . وقد ينصحون للمرأة ، بأن تؤمن بتلك الفروق ، إذ لا أثر للشورة في قلب الخصائص المطلقة ، والأحداث الثابتة ! . . .

إن هذه الأحكام التي يرسلها هؤلاء الباحثون تستند إلى مشاهدات تاريخية قاصرة على بعض الاقوام المعينة ، في مرحلة واحدة من مراحل التاريخ البشري ، هي مرحلة عصر الأبوة . لقد رأينا فيما سبق أن النظام العائلي مر بمراحل كثيرة ، منذ نشوء الخليقة حتى عصرنا الحاضر ، وقد قسمنا تلك المراحل على اختلافها إلى ثلاث : الامومة ، والأبوة ، والمساواة . وقد رأينا أن الامومة سيطرت في عهد المشاعة الابتدائية ، عندما لم تكن قد ظهرت بعد ، إلى عالم الأرض ، فكرة التملك الفردي . وأن الأبوة سيطرت بعد انتقال الشعوب من الحالة العشائرية إلى الحالة الحضارية . وأن المساواة مرحلة أخيرة ، يمكن أن يهدأ فيها النوع البشري عن التفاضل بين الجنسين ، لينصرف

الى إبداع المثل الاعلى للانسان الكامل .

إن هذه المراحل نفسها ، لم تفرض على البشرية فرضاً ، ولم تكن وليدة الصدفة والمفاجآت ، وإنما نتجت عن اسباب معروفة معينة ، ولا بد لنا من معرفة هذه الاسباب المحركة للتطور ، الدافعة للانتقال من مرحلة إلى اخرى ، ومن نظام إلى ثانٍ .

يلاحظ عند دراسة الاقوام والشعوب الابتدائية ، أنها لم تعرف شيئاً عن النظام العائلي ، وان أول شكل لهذا النظام إنما كان يتمثل في الفوضى الجنسية . ويلاحظ أيضاً ، أن فكرة التملك الفردي ، لم تكن قد ظهرت بعد ، فالأرض وما عليها من حيوان وثمار ملك ابنائها ؛ هنا ساد نظام الامومة ؛ والام فيه ، لها على اولادها حق النسب ، وهي التي تحتضنهم وتنشئهم . وساعد على تمكين نظام الامومة ، في عهد العشائر الطوطمية ، انصراف الرجل للصيد ، واشتغال المرأة بالدفاع عن الاطفال ، واعمال الزراعة . ولكنه عندما أخذ الرجل يمود شيئاً فشيئاً إلى حقله ليزرعه ، واصطنع بعض الادوات لهذا العمل ، واحتفل بقطعة من الارض ، بدأ نفوذه بالازدياد . ومع هذا الانقلاب في الحياة الاقتصادية نشأ تبدل في النظام الاجتماعي وبدأت روابط القرى تقوم على الدم بدلاً من الطوطم ، وظهرت العائلة بالمعنى المتعارف .

ومرحلة الابوة ، كلامومة ، عهد طويل ، يتميز بسيطرة

الرجل على المرأة واستبداده بها ، وقد أوحى سهولة معرفة الاحداث .  
فيه ، إلى بعضهم ، الفكرة التي أُلْمنا اليها في مطلع هذا البحث ،  
وهي تفوق الرجل على المرأة ! .

لا ، ايست المسألة بما زعموا ، وانما تناخص بان الرجل اعتاد  
لقوته أن يحكم ، والمرأة لضعفها أن تخضع ، ولعل من النافع  
لو ذكرنا بأن تلك القوة ، وهذا الضعف ، لم يكن مردها  
تفوق ذهنه ، وانحلال تفكيرها ، وإنما كانا ناجمين عن سبب  
اقتصادي هام ، هو ملكيته لوسائل الانتاج ، وحرمانها من هذه  
الوسائل المنتجة . وعن ذلك كان حالها معه ، يشبه في قليل أو  
كثير ، حال عبد الأرض مع صاحبها ، أو حال العامل مع رب  
الآلة ، والعبد مع السيد ، والمدين مع الدائن عند الرومان ، أو  
حال المعوز مع المرابي في كل الأزمان ! . ولا يندفع هذا الرأي  
بزعم من يزعم أن هذا التملك ، ينهض بمجد ذاته ، دليلاً  
ساطعاً على تفوقه وضعفها ، ذلك أننا لسنا بحاجة لسرد تفاصيل  
كل المآسي والمهازل التي تمثلت في عهود الظلم والوضى والتحكم .  
وكما نجم نظام الرق والاقطاع والرأسمال ، عن تملك فريق  
لوسائل الانتاج ، وحرمان فريق آخر منها ، فكذلك ينبغي أن تفسر  
عبودية المرأة ، التي تحكم فيها الرجل واستعبدها ، وأصبح سيدها ،  
الآمر المطاع . وهكذا حدثت المأساة التي يجهد الفكر الحديث للتخلص

من نتائجها الخزية ، في اكثر بقاعه ومناطق نفاذ أوامره . وقد أشار الى ذلك القرآن الحكيم ، بآيته الكريمة : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » — صدق الله العظيم .

ان هذه الظاهرة الاجتماعية الصحيحة ، من أن مالك وسائل الانتاج ، هو الذي يحكم ، ويستبد ، ويسترق ، ويكون فيها يكون قيماً بشهادة القرآن العزيز . إن هذه الظاهرة ليست بقصورة على الانسان وحده ، بل هي تسيطر على عالم الحيوان ذاته . . . ألا رأيت الى الاممات من إناث النحل ، يطردن الذكور الماطلين الى ظاهر الخلية ، بالرغم من التفوق العضوي لدى هؤلاء الذكور ، وبالرغم من هذه الذكورة التي لم تقن ولم تنفع .

ولم تضع ظروف حياة المجتمع ، من جهة ، ولا أنانية الرجل ، من ناحية ثانية ، أمام المرأة — لحسن حظها أو موته — مسائل تجعلها تخرج من تلك العزلة ، وتهجر هذا البرج العاجي ، الذي ابتكره لها الننان الرجل ، والعالم الرجل ! . وترسبت في نفسها خلال عصور الابوة الطويلة ، طبقات من الشعور بالضعف ، وألوان من الايمان بالقصر ، ولم يتيسر لها استمهال ملكاتها الفكرية ، أو إنماء مواهبها المبدعة ، فأثرت الاستكانة ، وانطوت على ذاتها ، تحلم في سجنها القاسي الذي يئد المواهب ، ويذل النفوس الكريمة ، بما تتطلع به عليها الأيام . . .

غير أن حال المرأة لم تكن واحدة خلال عهد الأبوة ، وإنما كانت تختلف شدة وضعفاً تبعاً لتطور وسائل الإنتاج .

ففي عهد الرق ، نلاحظ أن علاقة لانكسر بين سيطرة السيد على عبده ، والرجل على امرأته ، والسلطان على شعبه . أجل فقد كانت المرأة في هذه الفترة من نظام الأبوة ، تباع وتشري وتعتبر شيئاً . أما في الإقطاع ، الذي كان ثورة على الرق ، فقد نشأت طبقة تساند الإشراف مالكو الأرض والفلاحون الأقنان . وانزوت المرأة في البيت ، تقوم بتربية أولادها ، والتمنية براحة الزوج ، الذي لا يجب أن يغضب !

أما البورجوازية ، التي طوحت بالإقطاعية الشائخة ، فقد شاعت فيها المبادئ الديمقراطية وصار المبدأ الجمهوري ، تقريباً ، كأساس في الحكم ، وأصبحت الحرية والمساواة والعدالة أهدافاً سامية ، يشور في سبيلها الشعب على الطغیان والاستبداد . وقد طرأ على حياة العائلة بسبب تطور الآلة والحياة الاقتصادية تغير شديد ، فلم تعد وحدة تربية واقتصادية ، إذ اضطر عدد كبير من النساء لأن يغادرن البيوت إلى العمل ، وهكذا بدأ يظهر لديهن « الحنين إلى النجوال » والصدوف . عن « الثبت بالمكان » هاته الفكرة ، التي يرددها أدباء الإقطاع ! . وكان عام ١٩١٧ ، مظهر فجر للبشرية جديد ، إذ ولدت فيه مرحلة المساواة الكاملة ، واطاحت ثورة أكتوبر بالإقطاعية والرأسمالية معاً ، وحطمت كل أشكال الاستبداد والتحكم ، ونالت المرأة على يدها

كل الحقوق المدنية والسياسية ، وألغيت الفروق الخالدة ، وتخلصت المرأة نهائياً من حكاية القصر الابدي ! .

وبعد فهل كانت هذه المساواة التشريعية بين المرأة والرجل ، وليدة « الإرادة الحسنة » التي اتصف بها قادة الثورة ، وواضعو دستور العمل والفلاحين والجنود ، أم كانت وليدة « اليد السحرية العجيبة » ! مهلاً ، لا محجائب ولا سحر لقد ابطأت الثورة ملكية فئة الاراضي ، وماكينة ثمة اخرى لأدوات الانتاج والعامل ، فأصبحت الملكية جماعية ، والعمل اشتراكياً ، والحكم شعبياً ، والدولة من وراء ذلك ، للإشراف والتنظيم : لقد خسر الرجل سيطرته على العبد والفلاح والعامل ، والمرأة أيضاً ! .

« هذه الارض لي ! » مبدأ صحيح لعبودية المرأة في مطلع عهد الابوة ، و« هذه الارض لنا » مبدأ صحيح ، لحرية المرأة في مطلع عهد المساواة ، التي سينجر اليه العالم المتمدن جميعه في عالم القدر القريب . ان الاسرة الجديدة أصبحت محققة للمثل الفكرية السامية ، من حرية اختيار ، وتفاهم مشترك ، وتعاون على التربية ، كما خلص المجتمع من آفات كثيرة من قضاء على العزوبة ، بتحقيق العمل ، والقضاء للبقاء لعدم الحاجة ، وتراجع في الطلاق لقله أسبابه الموجبة : أحداث خطيرة في تاريخ البشرية .

وهنا قد يتبادر الى الذهن سؤال وجيه : هل العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد المؤثر في التطور التاريخي ؟ الواقع أن العامل

المادي الاقتصادي ليس العامل الاوحد ولكنه الاقوي ، والاشد  
أثراً في تسيير التطور . ولكنه ، هو نفسه ، يخلق أوضاعاً اجتماعية  
معينة ، وقوانين تنظم حقوق الناس وواجباتهم ، وعادات واعراف  
تحدد عيشتهم ، واعتقادات خلقية وقيم روحية توجه سلوكهم ، وكل  
هذه لا تلبث ان تصبح هي أيضاً ذات وجود مستقل وقوة فعالة ،  
تعمل بدورها مؤثرة في الواقعات المادية نفسها .

وقد ينهض أخيراً جماعة يذهبون بعيداً في السؤال عن المرحلة  
التي تتمتع المساواة . فالاستاذ ليتسارد مثلاً ، يؤكد أن المرأة  
مستعمدة الى حكم البلاد ، سواء أكان عودها خيراً أم شراً ،  
وربما قضي على الذكر البشري أن يشغل وظيفة ذكر النحل  
أو المنكبوت ! .

وبنحن ليس من شأننا أن ندخل في هذه التفاصيل ، أو أن  
نتنبأ عن المستقبل ، وإن كنا نعتقد بان المساواة هي خاتمة المطاف  
التي سينصرف البشر إليها ، لتحقيق مثل اخرى ، ما اكثرها ! .  
إننا نعتقد أن المساواة ستبقى هي نفسها ، لاننا نعرف أن  
الانظمة ، إنما تنحل بانحلال أسبابها الموجبة : فنظام الرق انعدم  
بانعدام السادة ، وكذا الاقطاع مات بموت الاشراف ، والراحمال  
يزول بزوال المستثمرين . أما نظام المساواة فلن يقضى ، لان حماته  
الشعوب ، وامل هؤلاء سيقون مخلصين ، مادامت الشمس تبعث  
الحياة في عالم الارض ! .